أنطون سعاده

باعث النهضة السورية القومية الإجتماعية

توطئة

تحتفل "مؤسسة سعاده للثقافة" بالمئوية الاولى لولادة انطون سعاده، باعث النهضة القومية الاجتماعية، الذي ولد في الاول من آذار (مارس) عام 1904. ويصادف انعقاد المؤتمر الذي دعت اليه المؤسسة حول " الدولة القومية والتحديات المعاصرة" في الاسبوع الاول من شهر تموز (يوليو) ذكرى اغتيال "المقونن" لانطون سعاده، اذ جرى اعدامه في 8 تموز (يوليو) عام 1949 في محاكمة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً اذ "ألقي" القبض عليه في دمشق بمؤامرة اشترك فيها حسني الزعيم والسلطات الحاكمة في لبنان وقوى اقليمية واجنبية متعددة، واقتيد بحراسة امنية مشددة الى المحكمة العسكرية في بيروت حيث تمت اجراءات "الإتهام" من قبل المدعي العام و"الدفاع" من قبل محام عسكري مسخّر تم "التداول" من قبل رئيس المحكمة والاعضاء وصدور الحكم بالإعدام و "امتناع" رئيس الجمهورية عن العفو فتنفيذ الحكم تحت جنح الظلام، كل ذلك حدث في مدى ثماني ساعات هي الأقصر والأسوأ والأهول في تاريخ المحاكمات منذ فجر التاريخ حتى يومنا الحاضر.

في هذه المناسبة تصدر مؤسسة سعاده للثقافة هذا الكتيّب الذي يسجل ردات الفعل العاصفة على هذا الإغتيال المنظّم وفيه افتتاحيات غسّان تويني (النهار) وكامل مروة (الحياة) وسعيد فريحة (الانوار).

كما يتضمن مقتطفات من ثلاثة إستجوابات قدمها الى الحكومة اللبنانية النائب في البرلمان اللبناني اذ ذاك الاستاذ كمال جنبلاط، بالاضافة الى مقالة لانطون سعاده بعنوان "انتصار القومية السورية يحقق الجبهة العربيّة القومية" كتبها في 1947/02/07 في جريدة "كل شيء" ومقالتين لسعيد تقي الدين وهشام شرابي.

وأخيراً يتضمن الكتيّب قصة "الإغتيال" كما رواها لسعيد تقي الدين الكاهن الذي عرّفه.

سيــرة سعـــــاده

أول آذار 1904 ولد في الشوير من أبوين شويريين، الدكتور خليل، وكان طبيباً وصحافياً وكاتباً وروائياً ولغوياً، ونايفة نصير.

1920 غادر الى الولايات المتحدة مع أخوته الصغار إلى عند خالهم سليمان نصير.

1921 وصل إلى البرازيل ملتحقاً بوالده، فيها. درس في عدد من المعاهد ثم راح يساعد والده في إصدار جريدة "الجريدة" أولاً فمجلة "المجلة"، فيهما نشر أولى مقالاته.

1930 بعد أن عاد إلى الوطن مزمعاً تأسيس حزب يكفل توحيد أمته والنهوض بها توجّه إلى دمشق لدراسة الوضع فيها. درّس أثناء ذلك في أحد المعاهد وعمل في صحيفة "اليوم" التي كانت تصدرها "الحركة الوطنية"، إلا أن أمله خاب فعاد إلى لبنان بعد عام.

1932 نتيجة احتكاكه بأوساط الطلبة في الجامعة الأميركية في بيروت وقد كان يدرّس اللغة الألمانية للراغبين من طلابها، أسس الحزب السوري القومي الإجتماعي بشكل سري.

1935 انكشف أمر الحزب الذي كان قد انتشر في مناطق لبنان والشام وفلسطين، وبلغ عدد أعضائه الألف تقريباً في 1935/11/16. تعرّض سعاده ومعاونوه والكثير من أعضاء الحزب للاعتقال . حكم عليه بالسجن 6 أشهر أنهى خلالها كتابة مؤلفه العلمي "نشوء الأمم".

1937 بعد أن كان سعاده قد تعرّض لاعتقال ثان وثالث، وجدت الدولة أن تهادن الحزب وهي على أبواب انتخابات نيابية، كما وجد الحزب بدوره أن يهادن الدولة بسبب حاجته إلى فترة من الراحة كي ينصرف إلى تنظيم أوضاعه. وقد أمكنه أن يحقق الكثير من الإنجازات، منها إصدار جريدة "النهضة" وطباعة بشوء الأمم، وكتيب التعاليم ، ودستور الحزب، وإنشاء الندوة الثقافية ، وتوسيع انتشاره في مختلف الأوساط والمناطق.

1938 في 11 حزيران 1938 غادر سعاده بيروت عبر دمشق، عمان، حيفا، قيرص متوجهاً إلى المغتربات في جولة لتنظيم أوضاع الفروع الحزبية وتأمين مورد مالي. بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، وصدور حكم غيابي بحقه عن السلطات الفرنسية المنتدبة، فقد اضطر سعاده للبقاء في الأرجنتين في واقع من الإغتراب القسري، أصدر خلاله جريدة "سورية الجديدة" في البرازيل، و "الزوبعة" في الأرجنتين، التي فيها نشر سلسلة من أهم مقالاته التي تم جمعها لاحقاً في كتابين : "الصراع الفكري في الأدب السوري" ، و"الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية".

1947 في 2 آذار 1947 عاد سعاده إلى بيروت حيث وجد في استقباله حشداً ضخماً بعشرات الألوف من أعضاء حزبه ومناصريه مما أثار خشية أهل الحكم في لبنان. وفي اليوم التالي لوصوله وبذريعة الخطاب الذي ألقاه صدرت بحقه مذكرة توقيف استمرت عدة أشهر.

1948 إنكب سعاده على تنظيم حزبه الذي شهد أنتشاراً واسعاً، أقصى العناصر الخارجة على عقيدته، أحيا الندوة الثقافية، وراح يعد حزبه للقيام بدوره في حرب فلسطين، لكن الأنظمة العربية امتنعت عن تزويده بالسلاح فاقتصرت مشاركة القوميين الاجتماعيين على فرقة أسسها وقادها الأمين المناضل مصطفى سليمان، وعلى تظوع العدد الكبير من أعضاء الحزب للقتال ضمن صفوف جيش الإنقاذ فضلاً عن قيام أعضاء الحزب في فلسطين بدور مميز في القتال والتصدي.

1949 تهيبت الدولة اللبنانية، كما أنظمة عربية أخرى، من النمو الذي راح يشهده الحزب، كما من إعداد نفسه قتالياً، فنسجت مؤامرة للإطاحة به كان حربتها حزب الكتائب الذي هاجم مسلحوه مطبعة فضول في الجميزة – بيروت حيث تطبع جريدة الحزب "الجيل الجديد" وأحرقوها.وبدلاً من اعتقال المعتدين، شنت السلطة اللبنانية حملة اعتقالات واسعة في صفوف قيادات الحزب وأعضائه، ولكنها لم تتمكن من اعتقال سعاده بسبب انتقاله إلى دمشق.

في 4 تموز رد سعاده على حملة السلطة اللبنانية التي راحت تداهم منازل القوميين الإجتماعيين وتعتقل أعضاءه، بإعلانه الثورة القومية الأولى. إلا أن تواطؤ رئيس الجمهورية السورية حسني الزعيم الذي تأكد أرتباطه بالصهاينة ولقائه وزير خارجية العدو موشي شاريت، في مصيف بلودان، مع رئيسي الجمهورية والحكومة اللبنانية، أدى إلى تسليم سعاده إلى السلطات اللبنانية التي حاكمته صورياً في السابع من تموز وأعدمته فجر الثامن منه.

2001 أصدرت مؤسسة سعاده للثقافة "الأعمال الكاملة " التي تضم جميع كتبه ومقالاته وخطبه ورسائله منها :

- نشوء الأمم
- الاسلام في رسالتيه – المسيحية والمحمدية
- الصراع الفكري في الأدب السوري
- المحاضرات العشر
- أعداء العرب أعداء لبنان .

إنتصار القومية السورية يحقق الجبهة العربية القوية!

أنطون سعاده

قد تبيّن من مقاليّ السابقين: "العروبة افلست" و "...والإنعزالية اللبنانية أفلست" أنّ إفلاس التعرب والتلبنن عائد إلى الأوهام "القومية" التي تتعلق بها الرجعيتان الجديدتان اللتان تُلبسان الحزبية الدينية لباس القومية، ظانتين أنّ هذا الإلباس يقوم مقام الحقيقة ويغني عن القومية الصحيحة. وقد لخصت القضيتين المتناقضتين اللتين تنادي بهما الرجعيتان الجديدتان في أنّ الرجعية العروبية تريد جمع ما كوّنته الطبيعة متفرّقاً وأنّ الرجعية اللبنانية تريد تفريق ما كوّنته الطبيعة وفرضه الواقع مجموعاً واحداً – مجتمعاً واحداً، أمة واحدة. فالرجعية الأولى تريد أن تجعل من البيئات التي كوّنتها الطبيعة في قارتين بيئة واحدة ومن الشعوب والأمم القائمة، في تلك البيئات، شعباً واحداً وأمة واحدة. والرجعية الثانية تريد أن تجعل من البيئة التي كونتها الطبيعة بيئة واحدة متماسكة بيئات، ومن الشعب الواحد والأمة الواحدة شعوباً وأمماً. وقد قلت في المقال السابق إني لا أتوقع أن يتَّعظ الرجعيون المتجددون المستعربون ومستغلو العروبة بالحقائق التي جلوتها وبالنكبات التي حلّت

بلأمة السورية، من جرَّاء أوهامهم ورجعيتهم. وأقول في هذا المقال، إني لا أتوقع أن يتعظ الرجعيون المتجددون المتلبننون ومستغلو التلبنن بما جرّته أوهامهم على الأمة السورية عامة، وعلى اللبنانيين خاصة، من تقهقر وانخذال.

إنّ للرجعية لغتها الخاصة ومفاهيمها ومقاييسها الخاصة. فالغضبة على المضللين الرجعيين وعلى قضايا التضليل هي، في قاموسهم، "شماتة"! وهم يجهلون تماماً القول "قد أُعذر من أنذر" والفتن الدينية التي تجر الأمة إلى حروب أهلية ومذابح يذبح فيها ابن الأمة أخاه هي "قومية تقدمية" عندهم. وقد يخطر لبعضهم أن يصير عالماً رجعياً في الاجتماع والسياسة فيقول: "الأمة أصل والشعب فرع" فيأتي بآيات تقدّم رجعي باهر ويحتاج العالم التقدمي إلى التقدم مئات من السنين إلى الوراء ليتمكن من فهم هذه اللغة. ويجب أن أعترف أني، بعد أن عانيت ما عانيت في بناء الحقيقة القومية التي لا تمنع أن تقول الأمة بمعنى الشعب والشعب في مقام الأمة والتي تقول إنّ كل أمة شعب ولا يعكس، لم يعد في إمكاني أن أتقدم إلى الوراء كل الشوط الدراسي الذي تقتضيه معرفة سفسطة النهضة الرجعية وأن أتعلم "أنّ الأمة ليست الشعب وأنّ الشعب جزء من الأمة وأنّ هذه اصل وذاك فرع.".

والرجعية الجديدة اشد مكابرة، في الحق، من الرجعية القديمة، لأنّ هذه بسيطة تعرف بساطتها ولها قضية واحدة بسيطة، أما الرجعية الجديدة فقد أنشأت لنفسها سفسطة ملتفة وملتوية وأقامت علماً رجعياً يقف دونه العلم التقدمي مطأطئاً، صاغراً. وهي، في سفسطتها ومكابرتها لا تسلّم، أبداً بأنها أفلست. فما دام في الأمة السورية رمق حياة وبقية قوة فهي لا تقدم طابق إفلاسها! إنها لا تقدّم طابقها إلا بعد أن تكون قد قضت على كل قوة وكل إمكانية في سورية!

ولكن، إذا كانت النايو رجعية، بنوعيها العربي واللبناني، قد أفلست إفلاساً عظيماً، باهراً، وجلبت على الأمة السورية نكبات هائلة شهد روعتها العالم كله فهل تعجز الأمة السورية عن النهوض والتغلب على الرجعية والنايورجعية؟

قد برهنت الأمة السورية بنهضتها القومية الإجتماعية على استعادتها حقيقتها وعلى تجلي هذه الحقيقة في نظرة إلى الحياة والكون والفن متفوقة منتصرة، وعلى مقدرتها على مواجهة القضايا و

المسائل القومية والإنترناسيونية، بقضية قومية إجتماعية كلية واحدة ومبادئ حية تقضي على شعوذة النايو رجعية.

إنّ القومية هي وعي الأمة وجودها. والأمة ليست لغة ولا ديناً ما، بل هي واقع اجتماعي – هي مجتمع إنساني وأرضي. فلو أطلقت لغة واحدة في العالم كله لما جمعت العالم أمة واحدة. ولو أطلقت فيه مذهباً دينياً واحداً لما صار أمة واحدة. فلا اللغة ولا الدين ولا الإثنان معاً يجعلان الناس أمة واحدة، أي مجتمعاً ذا شخصية سياسية. هذه أمم العالم الإسباني فإنها تتكلم لغة واحدة، وتدين بالمذهب الكاثوليكي الواحد وجميعها إلى ذلك، من أصل واحد إسباني وهي مع ذلك، أمم لا أمة، لأنها مجتمعات لا مجتمع واحد. وعلى هذا القياس تقيس العالم اللاتيني والعالم الأنكلوسكسوني والعالم الجرماني والعالم الصقلبي والعالم العربي، مع العلم أنّ روابط العالم الإسباني اللغوية والدينية و الدموية أيضاً هي اقوى كثيراً في ذاتها ومن الوجهة التاريخية والوجهة النفسية من روابط العالم العربي والعوالم الأخرى باستثناء الأنكلوسكسوني.

إن الفتح الحربي وتغيير لغة قوم ودينهم بواسطة الفتح لا يلغيان وجود الأمة المغلوبة. فقد إفتتح النرمان إنكلتره وسيطروا عليها وغيّروا لغتها الجرمانية وصيّروها لاتينية وبقيت الأمة الإنكليزية. وغيّر الفتح العربي اللغة السريانية في البلاد والدين في غالبية السوريين ولكن الثقافة السورية هي التي سيطرت على اللغة العربية وبقي المجتمع السوري هو هو. وبُسط الدين المحمدي على الفرس والترك وغيرهم وسيطر العرب عليهم حيناً وفرضوا عليهم اللغة العربية ديناً ولكن القومية تغلبت على الرابطة الدينية في الفرس والترك كما تغلّبت على الرابطة الدينية واللغوية في سورية. وسبق الفرس والترك سورية في مضمار الوعي القومي بسبب استعادتهما سيادتهما القومية باكراً. لتّن الفتح الروماني العالم اللاتيني لغة وديناً ولكنه لم يستطع تلتينه قومياً وجعله أمة واحدة، لأنه لم يستطع توحيد البيئة والمجتمع. فبقيت إسبانية في طبيعتها وواقعها الاجتماعي وبقيت كذلك فرنسة وإيطالية ورومانية، وتجزأت إيطالية إلى دويلات مخالفة للواقع الاجتماعي الجغرافي، وقامت فيها مملكة نابولي ومملكة سردينية وجمهورية البندقية وغيرها وتسلحت كل منها باعتبارات كالتي تتذرع بها فكرة "القومية اللبنانية" ولكن وحدة البيئة، ووحدة حياة الجماعة، كانت أقوى من كل سفسطات التجزئة القومية.

بينما "القوميات" الرجعية تسير في سورية من خسارة إلى خسارة ومن إفلاس إلى إفلاس، تسير فيها القومية الصحيحة – قومية الحياة والواقع الإجتماعي – قومية الأمة السورية من ربح إلى ربح ومن انتصار إلى انتصار. فقد انتصرت هذه القومية الصحيحة بانتصار النهضة السورية القومية الاجتماعية على تحالف الاحتلال الأجنبي والرجعيات الوطنية ضدها – على ملاحقات القوات المسلحة واضطهادات الرجعيين وحقد النايورجعيين وشماتتهم. وقد أظهرت هذه النهضة القومية الاجتماعية، التقدمية، فساد القضايا والأهداف والخطط الرجعية وفساد التفكير الرجعي الجديد وأساليبه في جميع القضايا السياسية والإقتصادية والاجتماعية والحربية الحيوية للأمة السورية، وأنبأت بالكوارث التي يقود الأمة السورية إليها التفكير النايورجعي وانذرت أصحاب هذا التفكير بالعواقب الوخيمة ثم ساعدت، ما أمكن المساعدة، وعملت على تدارك ما أمكن تداركه. ولكن النفسية النايورجعية صممت على إلقاء الأمة في التهلكة لعلها تقدر أن تنقذ طابقها وتتّقي الفضيحة!

وقد إنتصرت النهضة القومية الاجتماعية، ليس فقط بنموها المستمر وتغلّبها على جميع الصعوبات والمقاومات الرجعية، بل بفرضها أهدافها وأساليبها حتى على التفكير النايورجعي نفسه. وآخر الأدلة والبراهين على ذلك الدعوة إلى المؤتمر للأحزاب السياسية في سورية الطبيعية للنظر في توحيد هذه الأحزاب أو توحيد غايتها الأساسية وخطط عملها. فهذه الدعوة التي تولت تنفيذها، بعض الأحزاب النايورجعية، هي التي وجّهتها أنا نفسي بإسم الحركة السورية القومية الاجتماعية في رسالتي إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية المؤرخة في 2 نوفمبر/تشرين الثاني 1947. ولكن العقلية النايو رجعية رأت أن تتبنى مشروع مؤتمر الأحزاب السورية بإسم مشروع "مؤتمر الأحزاب العربية" في سورية الطبيعية ورأت أن لا تدعو إليه الحزب القومي الاجتماعي الذي هو صاحب الدعوة الأصلي! وقد انتهى "مؤتمر الأحزاب العربية" ببقائه مشروعاً لمؤتمر سوري صحيح للنظر في المسائل المستعجلة الحيوية للأمة السورية.

إن انتصار القضية السورية القومية الاجتماعية التي هي قضية الوجود السوري والحقيقة السورية والفكر السوري على قضايا السفسطة النايو رجعية هو انتصار الوجود على العدم وانتصار الحقيقة على الوهم – إنه انتصار يجمع السوريين أمة واحدة وقومية واحدة لمجتمع واحد قد زالت منه العصبيات والعنجهيات المليّة وتآويل الحزبية الدينية للقضية القومية. فيرى أنفسهم الذين غررت بهم وفرّقتهم "قوميات" النايو رجعيين المتضاربة مجموعين في قوميتهم الصحيحة – قومية واقعهم

الاجتماعي الحيوي، قومية أمتهم غير المقهورة، قومية نفسيتهم غير الممسوخة، قومية تاريخهم المجيد العريق الذي هو أعرق وأمجد تاريخ في العالم طراً، إذا نظرنا إلى التاريخ بعين الحقيقة والتجرّد عن الهوى وتجريد القيمة التاريخية من نظرة العصبية الدينية.

إن القضية السورية القومية الاجتماعية هي انتصار على عقلية التعلق بتوحيد ما ليس واحداً في الاجتماع والأرض وبتجزئة ما هو واحد في الإجتماع والأرض. بهذا الانتصار تنهض الأمة السورية، وبنهضة الأمة السورية يمكن إنشاء جبهة عربية أمكن وأقوى من الجبهة التي تشكلت في "الجامعة العربية" في وضعها الذي أفلس!

سعاده المجرم الشهيد !

غسان تويني

وفق المسؤولون في اعتقال انطون سعاده، والتحقيق مع انطون سعاده، ومحاكمة انطون سعاده، والحكم على أنطون سعاده بالموت، والتصديق على الحكم ثم إعدام انطون سعاده، بسرعة ذهل لها الناس، وصرعوا، فعجزت العقول عن استيعاب الحدث، وعجزت عن ادراك مغزاه، وكأنها رزحت تحت عبء النبأ، بل تحت عبء الفاجعة، لا تعرف كيف تبدي رأيا، حتى الانسان الذي كون على كره سعاده ومبادئه ما كان يقول قولا غير ذلك القول : يا للهول ... وهو يكاد لا يعرف ماذا يقول!

وكاد الناس لا يعرفون ما اذا كان انطون سعاده قد أعدم أم قتل، واذا كان الذي جرى محاكمة ام مؤامرة!

لقد حوكم انطون سعاده بتهمة اثارة الفتنة والشغب والاعتداء على القوات العامة، والقيام باعمال التخريب والقتل، وهي تهمة يصح ان توجه الى رئيس عصابة، كفؤاد علامة مثلاً، كما يصح ان توجه الى بعض زعماء العشائر الذين لا تجهلهم الحكومة، او الى من يخطر بباله ان يقوم بمعركة صبيانية فيها من البؤس ومن الاجرام ومن اللامسؤولية. ولكن انطون سعاده لم يثر الفتنة لمجرد الفتنة، ولم يقم بأعمال الشغب لمجرد المشاغبة، بل انه لم يثر ويعتدي ويقتل لمجرد الاعتداء والثورة

والقتل... ان انطون سعاده رجل عقيدة وصاحب رسالة، انه زعيم حزب سياسي منظم... ولكن المحاكمة أغفلت ذلك كله، ولئن تكن الحكومة قد شاءت التخلص من الرجل باسرع وقت خوفا من ان يقلب عليها الارض ويطلق عليها السماء، قبل ان تتمكن من قتله، فأننا نقول لها انها قد بنت بأيديها مارداً جباراً يفوق انطون سعاده قوة وجبروتاً، انها جعلت انطون سعاده شهيداً لا في نظر اعضاء حزبه فحسب، بل في نظر الكثيرين، ممن كانوا لا يتمنون له غير تلك النهاية!

وبعد، فلو كان انطون سعاده فؤاد علامة او مصطفى طعان دندش او أي شخص آخر ليس صاحب رسالة وليس زعيم حزب لما مشى الى العمود الذي ربط اليه بهذه الشجاعة، ولما شاء ان ترى عيناه كيف يخترق الرصاص صدره. فأنطون سعاده يؤمن بالتاريخ، ويعرف ان التاريخ يذكر الذين أعدموا ولا يذكر الذي أعدم. وما تاريخنا سوى تلك الاجيال الطالعة التي كانت تبحث في الماضي القريب عن انسان يحب بلاده حتى الموت لتمشي وراءه، حياً ام ميتاً.

سابقة جديدة : عقيدة بالدم

كامل مروّه

... وهكذا أمرت الحكومة، الى النهاية على ان يبقى النزاع بينها وبين الحزب القومي قضية خاصة بها، واستبقت الشعب بعيداً عنها حتى اللحظة الاخيرة. لقد اتهمت واعتقلت، وبطشت، ودافعت، وأخيراً حاكمت واعدمت دون ان تصدر، حتى كتابة هذه السطور، بياناً واحداً تبسط فيه الحقائق المجردة. وكان الامل معقوداً على المحاكمات الموعودة لوضع النقاط على الحروف وتنوير الناس بالوثائق. ولكن المحاكمة الاساسية، اي محاكمة الاستاذ انطون سعاده، أجريت بسرعة "اتومية" وظل خبرها مكتوما عن الرأي العام الى ما بعد تنفيذ الحكم بساعات، فلم نفهم اذا كانت محاكمة متهم او محاكمة فرد او محاكمة حزب او محاكمة عقيدة.

بعد هذا كيف تريدون ان يحكم الناس على ما جرى: هناك قاعدتان لاصدار مثل هذه الاحكام في مثل هذه القضايا: الواقع والعاطفة، اما الواقع فاننا نجهل الكثير من اخباره لان الحكومة لم تكشف

عنه حتى الآن. فلم يبق الا العاطفة. ومتى عصفت العاطفة انقسم ابناء لبنان الى قسمين كالعادة، وبرزت اعراض السرطان الذي نشكو منه كمواطنين وكدولة.

وبعد فان قضية الاستاذ سعاده هي سابقة جديدة في حياتنا السياسية. وما دام الباب قد فتح على مصراعيه فانني اخشى الا تكون الاخيرة، وان تصبح ذات يوم قميص عثمان جديداً. وللجيل الطالع وحده ان يحكم عليها لان الزمن لن يسمح لغيره باصدار مثل هذه الحكم.

لقد مات سعاده في سبيل عقيدة ولدت شخصيته معها وذابت حتى النفس الاخير. هذه هي الحقيقة التي ترافق اعدامه مهما قيل في اسبابه وفي تلك العقيدة. وهو ولا ريب اول لبناني اعدم لاسباب سياسية، منذ الحرب العظمى في بلد لم يعرف منذ جيل معنى الدم في سبيل العقيدة، اذا طغت فيه الطائفية والسياسة والمناصب على الفضائل القومية، وحالت دون تركيزه في قلوب أبنائه تركيزاً منسجماً.

لقد شاء انطون سعاده ان يقول عقيدته بالدم. وشاءت الحكومة ان تقول كلمتها فيه وفيها بالدم. ولكن سعاده فرد والحكومة افراد. وما نحن جميعاً بالنسبة الى التاريخ والى الطبيعة والى تنازع البقاء بين العقائد الا نكرات عارضة تبلى في طي السنين. وتخلد ارادة الدهر فوق رؤوسنا ورموسنا جميعاً بين سابق ولاحق.

مع انطون سعاده

سعيد فريحة

(...) لقد كان اعتقال انطون سعاده مفاجأة له، فهو لم يكن يتوقع قط ان يصعد الى سيارته ستة رجال بغتة ويعتقلوه، ومع ذلك فلم يحتج ولم يضج ولم يبدر منه اكثر من التفاتة الى احد الرجال، ثم اتبعها بكلمة واحدة "شكرا".

وظل بعد ذلك طوال الطريق هادئاً صامتاً، الى ان وصل الى الحدود وتسلمه الامير فريد شهاب وبعض الضباط، واخذ اول ما اخذ الى ثكنة الدرك اللبناني، ثم الى غرفة المحقق في المحكمة العسكرية.

ولم يفقد انطون سعاده هدوءه ورباطة جأشه، لا عند الاعتقال، ولا اثناء التحقيق والمحاكمة ، حتى ولا بعد صدور الحكم عليه بالموت ، وعند تنفيذ الحكم.

لقد ظل هادئاً رابط الجأش من البداية الى النهاية! ووقف زهاء ثماني ساعات متواصلة في قفص المحكمة لم تنثنِ له خلالها ركبة، ولم ينحن له ظهر!

وارتجل دفاعاً استغرق ساعة ونصف الساعة دون ان يتلعثم لسانه او يعثر بكلمة نابية، وتلقى حكم الموت وكأنه تلقى دعوة الى غداء...

وذهب بعد الحكم الى السجن، فاذا به ينام ملء جفنيه... وكأنه حكم عليه بالنوم لا بالموت!!

ولما أيقظوه سألوه: ماذا تطلب قبل تنفيذ الاعدام؟ طلب فنجان قهوة!

وشرب قهوته بنفس الهدوء والاعصاب والمزاج الذي كان يشربها به في أي وقت، ثم سار الى الخشبة التي ربط عليها، وعندما هموا بعصب عينيه قال : لا لزوم ... فقيل له: انه القانون.. فقال: إذن فيلكن.

واركع وأوثقت يداه، فطلب من جلاده ان يحل الوثائق قليلاً... وان يزيل الحصى من تحت ركبته لانها تؤلمة!

واخيراً انطلقت الرصاصات وانتهى انطون سعاده.

انتهى بعد ان اثبت في احرج اللحظات انه لا يصطنع الرجولة، ولا يتكلف التهذيب ورباطة الجأش، بل ان هذه الصفات طبيعية في الرجل الذي لا تنقصه العبقرية.

مقتطفات من ثلاثة استجوابات

النائب كمال جنبلاط

حضرة رئيس مجلس النواب المحترم

مهما اختلفت العقائد السياسية بين رجل ورجل فالضمير علينا واجب والمثالية حق وللانسانية والرسالة الحزبية في عنقنا مسؤولية لا يتعرف عليها الا اصحابها وهم صفوة مختارة في هذا الوجود ولأجلهم سخر هذا الوجود.

فإنني كمواطن وكأنسان وكمفكر يؤمن بقيم هي فوق المعتقدات المجتمعية اطلب استجواب الحكومة اللبنانية بإسمي وبإسم الجيل المخلص حول الظروف الغامضة التي احاطت القضاء على الاستاذ انطون سعاده، رئيس الحزب القومي الاجتماعي اثر عملية هي من السرعة بحيث كانت اشبه بعملية تطهير ادارية بعد ان تألبت عليه عناصر الرجعية والطائفية والمصلحية وهو رجل عرف عنه انه رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبيرة وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل...

ان الشعب اللبناني لا يزال تحت وطأة كابوس الألم والحيرة والامتعاض من جراء التدابير المستغربة التي اتخذتها الحكومة اللبنانية بحق رئيس الحزب القومي الاجتماعي.

نهاية المؤمنين

ولا يصح ايضا ان نتجادل واياها في مصرع رجل – مهما اختلفت معنا آراؤه او توافقت – فقد أدى لها الشهادة الكاملة من يقينه، وتقاعس غيره عن اداء مثلها، فعلّم كل رجل عقيدة وفي مؤخرتهم كل من يدعي هذا من ساسة لبنان، كيف يكون التجرد لقضية وكيف تكون الامانة لها فكانت نهايته، على هذه البساطة وهذا التسليم وهذه الشجاعة المعنوية، نهاية المؤمنين...

وفي الواقع يستحيل على الحكومة ان تجادل وان تناقش وان تدافع عن نفسها وان تجيب، فقد ادانت نفسها بما فعلته من قبل، اذ قضت بشكل سري وبطريقة منكرة وعلى صاحب العلاقة والشاهد الاساسي الوحيد الذي كان باستطاعته وحده ان يناقشها وان يجادلها وان يدافع وان يجيب، فيناهض الحجة بالحجة، ويقارن الوثيقة بالوثيقة والحقيقة لا يجلوها الإعدام السري ولا يجاب على الفكر الا بالفكر، فسقط اذن حق هذه الحكومة في الدفاع عن نفسها وقد حرمت خصمها هذا الحق، وبطل سابقاً الدليل منها والحجة والبرهان بعد ان منعته عن سواها وعن خصمها. وبالعكس فاننا نعلن انه قد حققت في نظرنا وفي نظر الرأي العام الواعي قضية الرجل الراحل واتهاماته الصريحة التي وجهها هو بدوره للحكومة اللبنانية والتي نصت على اتصال هذه الحكومة المباشر باسرائيل وببعض المراجع الاجنبية، فثبتت عليها التهمة والادانة، بعد ان حاولت ان تخنق صوت المتهم الضعيف

الداوي رغم كل شيء وان تمنعه من اعلان معلوماته وأسرار دفاعه (راجع مقال سعاده في جريدة العلم الدمشقية).

القومية اللبنانية

ثم يذكر البيان الحكومي الغريب العجيب " العقيدة اللبنانية الصحيحة" ويذكرها هذه المرة منفصلة عن العروبة ولا نعلم السبب لهذا الفصل... وبعد، فما هي هذه القومية الوطنية اللبنانية الصرف؟ فهل تعني الحكومة ما يجدده العلم الاجتماعي بهذه الكلمة؟ اذا كان هذا، تكون قد اعترفت صراحة بالمقومات والعناصر التي ترتكز عليها هذه القومية اللبنانية والتي لولاها لما كانت – والقومية ظاهرة لا محيد عنها لتحسس الامة بذاتها – وبالتالي يكون هذا الاعتراف اقراراً راهناً بأن الشعب اللبناني هو أمة مميزة عن غيرها من الشعوب العربية – اي انها " جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التطور، خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات" (نشوء الامم صفحة 178). واذن استحق الرئيس الصلح تهنئتنا لانضوائه تحت علم النظرية التي تقول بها الكتائب اللبنانية مثلاً والكتلة الوطنية او الاحزاب اللبنانية الاخرى التي لم تتمكن بعد من تحديدها تماما في كتب ودراسات علمية موضوعية.

وكيف تستطيع الحكومة ويستطيع رئيسها ان يوفق اذا ذاك القول بين اللبنانية الصحيحة واعتقاده الشخصي الذي يدلي به لمن يلج سره، ان لا وجود الا للقومية العربية (وهي ظاهرة للامة العربية) – والقوميتان اللبنانية والعربية متناقضتان – كيف يمكن هذا التوفيق وهذا الانسجام الا لمن اصبحت في نظره العروبة مجرد تعاون دولي واتجاه عاطفي وتوجيه سياسي خارجي، ويبطل اذن حق دولته وحق غيره بأن يدعي تزعم العروبة والكلام باسم العروبة والسعي للعروبة. ويتلاقى اذ ذاك حتما ويتوافق – وهي من سخرية القدر – مع انطون سعاده ذاته على صعيد واحد وعلى مستوى واحد. والفرق بين دولته وبين خصمه: ان الخصم قد توضحت له هذه المفاهيم وهذه التحديدات وهذه القضية...

ونذكر هنا على سبيل التلاقي والاتفاق بين الرجل والرجل ما ورد في مقال لسعاده حول " حاربنا العروبة الوهمية لنقيم العروبة الحقيقية" اذ قال حرفيا: " العروبة أفلست " اشتمل على عبارات

صريحة لقولي بواقع العالم العربي والعروبة الواقعية التي اعلنتها اشارة الى ما ورد في خطابي يوم وصولي الى الوطن في 2 آذار 1947، اذ قلت : اذ كان في العالم العربي عروبة حقيقية صميمة فهي عروبة الحزب القومي الاجتماعي. الجامعة العربية اليوم هي محاولة تحقيق ما نادى به الحزب القومي الاجتماعي (اي القول بالجبهة العربية). فكنا نحن اصحاب العروبة الواقعية الحقيقيين وكان غيرنا اصحاب العروبة الباطلة. وبعد فنحن جبهة العالم العربي ونحن صدره ونحن سيفه ونحن ترسه! وورد في مقالي أيضاً: " ناديت الامة السورية الى النهوض بنفسها لتتمكن من الاشتغال في قضايا العالم العربي، ولنكون قوة فاعلة في تكوين الجبهة العربية" (كل شيء 11 شباط 1949).

ويقصد سعاده بالعروبة الباطلة عروبة الوحدة العربية الجغرافية السياسية التي تنازل عنها دولته وغيره من متزعمي العروبة يوم اعترفوا سنة 1943 بالكيان اللبناني وبالواقع اللبناني وبالاستقلال اللبناني واندرجوا فيها مختارين...

يظهر لنا من كل هذا انه كان اجدر بدولة الرئيس وبالحكومة ان تكمل تعاونها مع الاستاذ سعاده طالما التوافق واقع بينهما، في سبيل تحقيق اهدافهما المشتركة على الاقل في هذا الاتجاه المعين، اتجاه التعاون العربي عوض التخاصم الذي يدأ والتناحر الذي أدى الى شل الحزب موقتا وقتل زعيمه وتشريد وتقتيل بعض اعضائه البارزين وغير البارزين.

الظرف الدولي

كان هذا العنصر الشخصي العاطفي المتلبد على نفسه، كفيلاً وحده بإضرام حركة الانتقام من سعاده ومن حزبه لولا ان معرفتنا الخاصة بعقلية الجماعة الحاكمة تدلنا على انهم لا يعملون الا في ظروف تتوفر لهم فيها بعض الدعامات الدولية الاجنبية الخارجية فتبطش الجماعة او تخرب او تحاول ان تصلح، ولكن هو غيرها في الواقع الذي دعا الى البطش والى التخريب والى الاصلاح.

وقد تيسر في الواقع الظرف الدولي الخارجي المنتظر... فقد لاحظ اكثرنا منذ مدة غير وجيزة كيف ان موجة طاغية من الاغتيالات والمحاكمات والتنكيل بالشخصيات وبالاحزاب السياسية القوية، كيف ان هذه الموجة التهديمية أخذت تطغى على دول الشرق الادنى تباعا تنتقل من ايران حيث نكل برجال واحزاب تقدمية مشهورة وبالاحزاب الشيوعية ايضاً، ومنها الى العراق ومن ثم الى مصر حيث قضى مجهولون على مرشد جمعية الاخوان المسلمين ومن ثم الى دمشق حيث حلت جميع

الاحزاب واضطهد اصحابها وكان لا بد ان يأتي دور لبنان وان يأتي بالنهاية، لاننا والحمدلله نلحق دائماً ولا نتقدم...

ونظراً للظروف الخاصة الشخصية التي تتعلق بالحزب القومي الاجتماعي كان في طليعة الاحزاب التي تعرضت للسجن والتنكيل والتشريد والتقتيل.

وسيعقب هذه الخطة الداخلية التطهيرية دون ريب أعمال دولية خطيرة كعقد صلح منفرد مع اسرائيل من جانب لبنان ومن ثم من جانب الدول العربية اي بالتالي إختتام المسرحية بالاعتراف بالواقع الاسرائيلي في ظهر انينا، وهذا ما تنوه به أكثر الاخبار والوكالات العالمية والمؤتمرات اللوزانية الزائفة.

وفي الواقع وفي نظر كل من اطلع على خفايا الامور، لقد تدخلت بعض الدول الاجنبية المعروفة في قضية سعاده وضغطت بحيث ان اكثر الاعمال الاعتباطية التي صدرت عن الحكومة اللبنانية بهذا الشأن ازاء الحزب القومي ومن ضمنها المحاكمة والقضاء على سعاده وبعض أتباعه بهذه السرعة وبهذا الشكل قد تمت بناء على توصيات وتدخلات وتأثيرات دول اجنبية وعربية معروفة... ومن المؤسف ان يعلن هذا عن حكومات وطنية عربية، ولكن الحوادث المتتالية تظهر لنا بوضوح يتزايد يوما بعد يوم مدى رضوخ سياستنا لسياسة غيرنا ومدى تأثر رجالاتنا بغير المصلحة الوطنية الصرف.

ثورة سعاده

هذه التدابير الاستفزازية وهذه الاضطهادات والاعتقالات غير المشروعة وهذا الجو من التضييق على الحريات هي الاسباب الحقيقية التي دفعت سعاده للثأر لكرامته وكرامة حزبه، وهو اقل ما يتطلبه الشرف البديهي لمن يتعرف على معنى الشرف. فليس هنالك، كما رأينا، لا تآمر على سلامة الدولة ولا على استقلالها ولا على الكيان اللبناني. وكم من الجرائم قد اقترفت باسم هذا الاستقلال وهذا الكيان اللبناني.

فالرجل دافع عن نفسه ورد الاعتباطية بمثلها وخرج الى نطاق اللاشرعية لان الحكومة نفسها كانت قد خرقت إزاءه الدستور والقانون والشرعية.

والآن وقد تم للحاكمين سعيداً في ربوعنا ما شاءوا من تنكيل وتشريد واغتيال، فليتحصنوا جميعاً داخل بيوتهم ليحولوها لترسانات حربية يحيط بها العديد من زلمهم ورجالهم وقبضياتهم تحميهم شر الاغتيالات، فانهم قد حكموا على نفسهم بالقلق المستمر وبالتخوف الدائم وبالشك الذي يتأكل الحشى ويهشم الضمير، فسبحان الله كيف ان الثائر يشعر وكأنه طليق حتى في اعماق السجون وفي وحشة القفر وانفراد العزلة، وهم يشعرون وكأنهم في سجن تتلوى على نفوسهم فيه قضبان الحديد، وهم في الواقع ضمن جدران منازلهم المحصنة.

ان الرجال السياسيين الرجعيين الممتهنين في لبنان – المعارضون منهم والحكوميون على السواء – يحاولون في الواقع (وهذه هي الحقيقة الصارخة) ان يحولوا دون تكامل تطور هذه البلاد القومي الصحيح والغاء نظام الطائفية والرجعية الاقطاعية الذين يستندون اليه في بقائهم وفي سياستهم، ودون تسلم عناصر الشباب الوطني الفاهم والمتعلم لمقاليد الحكم ويتخوفون من تكتل هذه العناصر في احزاب منظمة قادرة فيتصدون لكل حركة تقديمة يمينية كانت ام يسارية، اشتراكية ام شيوعية، ظنا منهم ان بامكانهم ان يوقفوا مجرى التطور او الحد منه او الحؤول دون صيرورته واقعاً محتوماً، متجاهلين انه لا بد للحياة ان تستمر في طريقها الصاعدة وانه لا بد لعجلة التطور ان تسري وان يدوم انطلاقها وسريانها وان تعبر الى شاطىء الخلاص ولو على اجساد هؤلاء الرجعيين جميعاً.

وبعد فما ضر كل هذا... فعلى هذه الامة المريضة بابنائها " ان تتفهم عظمة حياة الفرد وجهاد الفرد وعظمة صراع الجماعة المتفتحة لحياتها ولمصيرها، وان تتطلب وتستدرج الضحايا الكثيرة، للتحرر من عبودية المادة والمال ودياجير السخافة والرجعية وحطة العيش الذليل. رحم الله من قال :" ان الشعوب الغبية تفعل برجالها ما تفعله الاطفال بألعابها، تحطمهم ثم تبكي طالبة غيرهم " (سعاده).

حرصنا طيلة هذه النبذه ان نستشهد ما أمكن بأقوال الاستاذ انطون سعاده للتدليل على قيمة الرجل الفكرية وعلى قيمة الخدمة الفكرية التي اداها لجيل ادرك الوعي القومي على يده، وسعاده في الواقع كما أشرنا " رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبرى وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها

مثيل". وهذا التذليل يفرضه علينا واجب التجرد الفكري، وتبرز اذن على ضوء هذه القيمة والخدمة الفكرية اعتباطية الحكومة في معاملة الرجل وفي القضاء عليه قتلاً، ولا يجوز قتل رجل الفكر بل كل ما من حقنا عمله ان نحول بينه وبين الاضرار بمجتمع وبكيان أ

وكل الينا امر الدفاع عنه، فيسجن او ينفى او يعتقل. وقد يأتي يوم تصبح فيه العقيدة المضطهدة منارة جيل ومبعث كيان جديد وغاية مؤسسات عديدة، وقد لا تصبح، هذا كله وهذا عندنا سيان، ولكن هو حق الفكر علينا ان نحترمه وان نحيطه بسياج الكرامة.

في اول مارس ولد الذي بعث الامة

سعيد تقي الدين

(في سنة 1946 وجه سعيد تقي الدين – وكان عامئذ في الفلبين – رسالة الى صديقه محيي الدين النصولي قال فيها : " سينقذ الامة من اسميه " رجل رأس بيروت" ولقد اطلقت عليه هذا الاسم لان كتفيه ستكونان اعرض من صخور الروشة، ورأسه ارفع من المنارة " ومن الغريب ان الكاتب سنة 1946 لم يكن قد سمع بعد بمن هو اليوم موضوع مقاله هذا).

لم اعش بعد ان انجلى عني ظل ابويّ الا مرات ثلاثاً في ظل انسان، استمرت اولاها شهوراً ستة حين لجأت – هكذا تبدو الحقيقة اليوم – الى مكتب كامل حماده في " مانيلا"، فعقدت معه شراكة أقاسمه فيها ارباحاً مرجوة. وبينما نحن ننتظر الارباح، كثيراً ما فصلت بيني وبين الجوع اشارة بقلم رصاص يدونها كامل حماده امراً لامين صندوقه بدفع ريالات خمسة. وفيما كان الامتنان يغمر قلبي ولا افوه به اذ ذاك، وانتشي باذاعته اليوم، كنت كثيرا ما يتآكلني البغض – بغض كامل حماده – واسائل نفسي : اي حظ، اي نظام، اي قدر حكم ظلماً فجعل من هذا الرجل محسناً وجعل مني محسناً اليه ؟

وفي حزيران الماضي عشت ساعات اربع في ظل رجل آخر هو شارل مالك، حين خلوت به في "النادي الدولي" اتحدث اليه لأحدث الناس عنه. واني على شغفي به لم املك نفسي خلال تلك

الساعات من كبح موجات من النار تثور في نفسي وانا اسائلها: لم احدث الناس عن هذا الرجل بدلاً من ان يتولى هو التحدث الى الناس عني ؟

ان كان في الدنيا من لا ينقم على نفسه لانها ليست في الذروة فهو إله يعبد او صعلوك لا شأن له.

وان مقياس كبر النفس ليس في انعدام هذا الشعور بالنقمة، وهي من حوافز الطموح، بل في ان تتهرأ هذه النقمة على نفسك ، فتصبح حسداً لسواك، او في ان تتصلب وتخشن فتنطلق عدواناً لئيماً ينتقص من قيمة من يتفوق عليك.

واليوم – وهذه هي المرة الثالثة التي أحيا خلالها في ظل انسان – اذ أصبحت القومية الاجتماعية دفة حياتي – اسائل نفسي : هي إنعدم في نفسي شعور النقمة على خالق هذه العقيدة بسبب ان جسده دفين؟ أتراني كنت انضممت الى صفوف القوميين الاجتماعيين لو ان مبدعها لم يضم رفاته التراب؟ أكانت أنانيتي وكان إعتدادي يردعانني عن الإعتراف بتفوق مخلوق؟ وقد يكون من السهل الكذب والجواب " نعم" أو من مجاورة الحقيقة أن أقول " لا أدري". ولكن الذي يعنيك من هذا الأمر ويعنيني هو أني اليوم أشد احتراماً لنفسي إذا أقررت بفضل كامل حماده وأحببته، وحين وجدت لذة بأن أتحدث عن شارل مالك.

وهذه النون المتقعرة بين ألفين، صميم ال " أنا" هذه الذات التي عبدتها وطالما ازدهيت بها، والتي من صلب العقيدة القومية الاجتماعية واول شروطها ان تذوب وان تفنى، أحقا انها أمحّت؟ أليس من العبث ان يقوى الانسان على ان يفني نفسه وان يذوب؟

الجواب بسيط ليس فيه اضطراب ولا تناقض، بل ان فيه حقيقة وعمقاً. ان الواحد منا يحيي نفسه ويذكيها اذ ينكرها. ان أشهى لقمة تأكلها هي لقمة تطعمها لسواك. ان الامومة التي جوهرت نفس امك وأمي ورفعتهما ووسمتهما بطابع الالوهية، ان هي الا انكار الذات وتذوبيها وافناؤها، وبالتالي احياؤها.

يسألونني : هل عرفت ذاك الذي نفذ عقيدته فناء بخلود؟ أقول لقد اجتمعت اليه مرتين خلت ثانيتهما طويلة. واليوم ارى انهما جاءتا تمهيداً لاجتماعات مقبلة. وها انا اجتمع اليه كل يوم من جديد واتعرف اليه كل ساعة.

لعل ارخص انواع البوح عن النفس هو الكلام. قد يكون المهندس أشد افصاحاً عن عبقريته حين يصمت مشيراً الى الطريق التي أشتقها، والجسر الذي بناه، والقصور التي شادها. هذه الطريق التي أسير ويسير عليها الألوف من الرفقاء اشتقتها يداه، وهذا الجسر الذي وصل ماضياً بعيداً مجيداً بمستقبل قريب مجيد هو الذي بناه. وهذه القصور التي شادها صاحب العرزال في نفوس المواطنين، كلها تحدث بالتصاميم والخرائط والبناء التي صنعتها يدا رجل الجيل الجديد.

في تاريخنا الحديث ظهر في بلادنا من أوحى البطولات نقمة على شيىء، واستشار الناس الى هدمه. لأول مرة في تاريخنا الحديث ظهر من اشتثار البطولات استنقاراً لصنع شيىء، وكانت النقمة في هذا البطولات عنصراً جزئياً لا الحافز الطاغي.

ان البطولة تمجد كيفما ظهرت. ولكن البطولة التي تحدوها بهيمية البغضاء فحسب، لا تبنى ولا تحيا، بل هي تنتحر حين تفترس . هو ذا تاريخنا في كلمتين بعد عهد الاستعمار: افتراس فانتحار. اما القومية الاجتماعية فهي أبعد ما تكون عن الحقد والعداء والبغضاء، فهي تسمو كلما انتصرت، لأن الافتراس والتهديم ليسا من حوافزها. وهذه العقيدة ليس لها حد تقف عنده، اذ ان الانتصار المتجسد بتحقيق هدف جغرافي حدده العلم والتاريخ والمنطق والمصلحة – هذا الانتصار ما هو بالغاية النهائية الكبرى التي نهدف اليها، بل ان هذا الانتصار هو نتيجة جزئية محتمة لانتفاض النفس القومية الاجتماعية، التي لا حدود لامكانياتها. اذا فحركتنا هي بطبيعتها ابداً متجددة منطلقة تأبى الوقوف عند حد او الجمود او الركود. فنحن لن نصل الى يوم نهلل فيه: قد وصلنا.

ولقد سبق ان قام في هذه الارض من جمهر الناس اغراء او تخويفاً او تملقاً ووعوداً. ولكن من معجزات رجل الجيل الجديد – واعماله لا توصف بأقل من انها معجزات – بل ان من معجزات رجل الجيل الجديد انه استهوى بالحقيقة وبالعلم المجرد، فجاء الايمان بعقيدته أقوى الايمان لانه استهوى من النفس البشرية اسمى عواطفها، وأعمق مداركها، لا بهيميتها، ولا أثرتها، ولأنه دلها على الاقتدار الكامن فيها، في الروح التي يحيا بها جسدها،وفي الجسد الذي هو جهاز روحها، ولأنه عرف أرضها جبهة يقاتل من أجلها مواطنون وفيها ينتجون.

ان الذي ولد في اول مارس، وارتفع رأسه الى أعلى من منارة رأس بيروت، وعرضت كتفاه فهما اقوى من الروشة وأضخم، هذا الرجل يمد فيئه في هذه البلاد يوماً بعد يوم. وان الألوف من الرجال والنساء هم أشد احتراماً لأنفسهم وثقة بها وبمستقبل الأمة لأنهم يعيشون في ظل عقيدته.

أنطون سعاده إلتزام الإرادة

هشام شرابي

كانت عودة انطون سعاده من الارجنتين في مارس 1947 حدثاً فاصلاً في حياتي الجامعية. قبل وصوله ببضعة أشهر كنت قد أنتهيت من كتابة بحث حول " الحزب السوري القومي الاجتماعي" قدمته في مادة العلوم السياسية التي كان يحاضر فيها شارل عيساوي، وقررت على إثره الانضمام الى الحزب. كنت في تلك المرحلة أبحث عن عقيدة ألفّ حياتي حولها، عن ذات تتجاوز " الأنا" الفردية، وعن هوية اجتماعية تضفي على حياتي وجوداً حقيقياً محسوماً، فوجدتها في عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ترددت في مغادرة البلاد لتكملة دراساتي العليا في الولايات المتحدة عقب رجوع سعاده من منفاه القسري، وبسببه أيضاً قطعت دراستي للدكتوراه في شيكاغو في بداية 1949، وعدت الى بيروت للعمل في الحزب.

كتب الي بعد ذهابي الى أميركا ملمحاً الى رغبته في أن أعود الى لبنان:" لست أدري طول المدة المزمع ان تقضيها في بلاد الفخفخة السياسية والميعان الفردي. آمل ألا تطول كثيراً، وان اراك قريباً في الوطن وتجالد معنا" (رسالة من بيروت في 22/6/1948). وفي رسالة أخرى تسلمتها منه في نهاية صيف 1948، شجعني على وضع الدراسة جانباً او تأجيلها، مما وضع حداً لترددي في العودة: " مع أني كنت أود ان تكمّل درس الدكترة من اجل قيمة المركز العلمي والرتبة بالنظر لمفهوم البيئة ونظر المؤسسات التهذيبية، فإني أفضّل اكتفاءك من التخصص في العموميات بما وصلت اليه لتنصرف الى التخصص في فلسفتنا وقيمنا والعمل في ثقافتنا. فمجتمعنا القومي الاجتماعي في أشدّ الحاجة الى المتخصصين في عقيدته الذين ينصرفون الى توطيد أسس النهضة

وتقوية ثقته بنفسه ومصيره. وان وجودك بقربي سيعينني على تصريف أمور كثيرة تزدحم وتتراكم حولي، وليسوا كثراً الذين أستطيع تكليفهم النظر في بعضها" (رسالة من بيروت في 25/8/1948).

منذ لقائنا الأول (بعد وصوله ببضعة أيام) غمرني انطون سعاده بعطف واهتمام كبيرين، ربما لأني كنت أدرس الفلسفة (وكان يهوى الفلسفة والتاريخ بخاصة)، ربما لأنني كنت فلسطينياً ومن عائلة مسلمة، او لأنه توسم فيّ موهبة خاصة تفيد الحزب. أذكر جلستنا الأولى معه أنا وفؤاد نجار في عين عنوب في 4 نيسان 1947، وصدف يوم عيد ميلادي العشرين، حين تمشينا في الطريق العام المطل على بيروت وحرسه الخاصّ يسير خلفنا. جلسنا تحت شجرة توت الى جانب الطريق ، ثم عدنا الى البيت الذي كان يقيم فيه وشربنا الشاي عند غروب الشمس. كان صوته منخفضاً ولفظه واضح النبرات، وأسلوبه في الكلام يلفت النظر بخلوه من الكليشيهات والتعابير المألوفة. يتكلم اللغة الفصحى بطلاقة (ابنتاه صفية وإليسار كانتا لا تحسنان الا الفصحى عند وصولهما الى بيروت في ربيع 1947) ويستعملها مع اللغة العامية للتأثير في سامعيه (كما فعل جمال عبد الناصر على نطاق واسع فيما بعد). ورغم ان عربيته الفصحى كانت اصيلة بتعابيرها، الا انها لم تكن " عربية" بالمعنى المألوف. كانت "لغة" جديدة، فذّة، لا في مضمونها وحسب بل ايضاً في مفرداتها وفي أسلوب تركيبها . كانت لغة عربية حديثة.

حدثنا في تلك الجلسة عن أفكار وموضوعات تراوحت بين الآنيّ والتاريخيّ، بين القوميّ والحضاريّ، بين العاديّ واللغويّ. متنقلاً بسهولة من تاريخ بابل وأشور إلى الوضع الراهن في العراق وسوريا، من الحرب العالمية التي انتهت إلى الصرّاع العقائدي بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية، الى الدين والفلسفة والأدب والسياسة. (في السنتين اللاحقتين عالج عدداً من هذه الأفكار والموضوعات في خطب ومقالات نشرت في "كل شيىء" و"الشمس" و "النهضة" و"النطام الجديد"، وهي جزء لا يتجزّأ من أعماله الكاملة التي جمعها وحققها بدر الحاج).

كان التأثير الذي تركه سعاده في نفسي طاغياً إلى درجة أني لم أعد أرى لنفسي مستقبلاً خارج الحزب، ولا عملاً إلا داخله. زال التردد الذي أحدثه في نفسي انتقالي من منطق القومية العربية إلى مفهوم القومية السورية، وتقبلت الحلّ الجدلي الذي طرحه أنطون سعاده على الشكل التالي : "القوميات" القطرية المتعددة (اللبنانية، العراقية ، الفلسطينية إلخ) نقيضها القومية العربية الواحدة (من الخليج الى المحيط). الحل الجدلي إذن هو القوميات المحددة، أي قومية الأقطار المركزية

الأربع في العالم العربي: الهلال الخصيب، " العربة"، وادي النيل، المغرب. أشبع هذا الطرح رغبتي في التحديد الواضح. وزال التناقض الذي كان يشدّد عليه المنظّرون القوميون العرب في حلقاتنا الفكرية بين ما هو قومي عربي وبين كل موقف آخر، واتّضحت في ذهني مفاهيم القومية والأمّة والوطن ودور التاريخ في تكوين البنى الإجتماعية السياسية وتطوّرها عبر الزمان والمكان.

لم يراودني شعور بالذنب بأني تخليت عن "هويتي العربية.فسورية أمة عربية تجمعها بمصر والجزيرة العربية والمغرب لغة واحدة وحضارة واحدة وتاريخ واحد ومصير واحد. صرت أدرك أن نظرية القومية العربية، بشموليتها الفكرية وإصرارها على الوحدة الكلية، إنما قامت على العاطفة، أكثر منها على العقل والمنطق والواقع الموضوعي، فاتّخذت الطابع ذاته للأيديولوجية الدينية التي كان يحرّم نقدها ويمنع طرح أي تساؤل حولها.

منذ اليوم الاول لوصوله، أثار انطون سعاده مخاوف الحكومة اللبنانية، وعلى رأسها رياض الصلح في أول عهد بشارة الخوري، والتي ما لبثت أن أصدرت مذكّرة توقيف بحقّه. كان السبب المباشر لذلك، الخطاب الذي ألقاه سعاده في منزل نعمة تابت في الغبيري، والذي أعلن فيه رفضه الضمني للكيان اللبناني وإصراره على وحدة الوطن السوري.

وبعد بضعة أشهر على وصوله، أصدر سعاده، وكان ما زال ملاحقاً، نصّاً جديداً لـ "مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي وغايته" ورد فيه تحديد جديد للوطن السوري شمل، بالإضافة الى سورية الطبيعية، العراق وجزيرة قبرص، والتعبير الجديد، " الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص". وفي تلك الفترة بقي سعاده في الجبل وأقام مركزاً متنقلاً للحزب، وأنشأ حرساً مسلحاً لحمايته، وأعاد استعمال الشعارات "السورية" التي كان نعمة تابت قد استبدلها بشعارات "لبنانية"، وأمر بإعادة إصدار مجلة الحزب الرسمية وعليها شعار الزوبعة.

مع أن سعاده وافق على اشتراك الحزب في الإنتخابات اللبنانية التي أجريت في أواخر 1947، إلا أنه أدرك تمام الإدراك أن النظام اللبناني سيمنع العمل السياسي عن الحزب طالما بقى على تحدّيه للحكومة اللبنانية القائمة. ولم تمض بضعة أسابيع حتى تكتلّت كل القوى السياسية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، من مسيحية وإسلامية، حزبية عروبية ولبنانية وشيوعية، في وجه أنطون سعاده والحزب القومي الإجتماعي، ودخلت في حلف ضمني ضدهما.

عندما رأيت سعاده عن قرب لأول مرة، كان يتطابق في شكله وملبسه وحركاته مع الصورة التي تكونت في مخيلتي عن الشخصية الإسبانية "اللاتينية". أذكر مرة في تلك الأسابيع الأولى لتعرّفي اليه أنه كان يدخن سيجاراً في ضهور الشوير. قدم لي سيجاراً من جيبه وقال :" هذا سيجار فخم". حتى ذلك الحين لم أكن قد رأيت سيجاراً في حياتي " تذكرت ذلك السيجار عند زيارتي إلى كوبا في ربيع سنة 1977 عندما قدم إلي سيجار مثله في الحجم والنوع". كان يصرّ كما يفعل الإسبان، على استعمال الجمع في مخاطبة ضيوفه، وبخاصة السيدّات، ويحذو حذو الإسبان في تأدّبهم المفرط في المناسبات الاجتماعية. لذا كان لطيفاً متواضعاً إلى أبعد حدّ في معاملة الكبار والصغار، وبشكل خاص في معاملة الذين قاموا بحراسته وخدمته. لكنه كان، في الوقت ذاته، بعيداً عن كل ما يحيط به. ويبدو وحيداً حتى في وسط الحشود التي كانت تتجمع لاستقباله أينما ذهب. عرفته معرفة حميمة، لكن لم أعرف داخليته كما كنت أعرف أصدقائي المقربين إلى، وبقي بعيداً عني بعده عن الآخرين. كنت في بداية العشرينات من عمري وكان في منتصف الأربعينات من عمره. أستعيد ذكراه من وراء الفاصل الزمني الذي حوّله من الأب أو الأخ الكبير الذي بالنسبة لي آنذاك إلى شخص غاب وهو الآن في سن ابني أو أخي الأصغر.

عندما سمعته للمرة الأولى يتكلم العربية خُيّل إليّ يتحدث بلكنة أجنبية، مثل أجنبي أتقن العربية وأصبح يحسنها أكثر من أهلها. كانت عربيته محكمة، كل جملة يلفظها تحمل معنى واضحاً ووظيفة محدّدة (مما أضفى عليها صبغة نص أجنبي). ذكّرني أسلوبه في الكتابة بأسلوب النهضويين (الشدياق، الشميل، زيدان). ومثال على ذلك هذا المقطع، من بيان أول آذار لسنة 1937، الذي يستعمل فيه التعابير والمركّبات اللغوية التي كانت سارية في أواخر القرن الماضي :"يمر لبنان اليوم في عهد من عهود الطغيان لم يعرف له مثيلاً من قبل ولا سمعت به أذن بشر . وما طما سيل الطغيان إلا على الخانعين فطارت نفوسهم شعاعاً، وما أهاب سوى أكبر الجبناء فانخلغت قلوبهم فزعاً". إلا أن أسلوبه تحوّل في السنوات اللاحقة إلى أسلوب دقيق أنيق تصعب مقارنته بأسلوب أي من معاصريه.ومع أنه كان يحسن عدداً من اللغات (الإسبانية والألمانية والفرنسية والإنكليزية) تجنّب استعمال الكلمات او التعابير الأجنبية في حديثه. وإذا أراد استعمال تعبير لا مرادف له في العربية لم يتردد في ابتكار مفهوم جديد يستعمله دون تفسير أو مقدمات ("نيورجعية"، "انترنسيونية"، "أميركانياً، " الدفلماسية") ويصرّ على مخاطبة ابنتيه صفية وأليسار بالعربية الفصحى (كانت الكبرى آنذاك دون السادسة من العمر). كان يكره التمثّل بالأجانب وعاداتهم،

ويشدّد على استنباط البدائل لكل ما هو أجنبي في ممارساته الاجتماعية. فمثلاً، عند تقديم الشاي الى ضيوفه يمتنع عن تقديم الكاتو والحلويات الأوروبية (كما كان يفعل الناس "المودرن" في بيروت في ذلك الحين) ويستعيض عن بالبقلاوة أو الكنافة أو نوع آخر من أنواع الحلو الوطني، ولا يقدّم من المأكولات في بيته إلا المأكولات الوطنية (رغم امتناعه شخصيّاً عن معظمها).

مثّل لي أنطون سعاده الرجل الحديث بالمعنى الكامل للكلمة . منذ ذلك الوقت برز أمامي الفرق الفاصل بين الحداثة الأبويّة المتخلّفة (التي كان من أبرز صفاتها اعتبار كل ما هو أوروبي "حديثاً" ومتفوقاً وكل ما هو وطني تقليدياً ومتخلفاً) وبين الحداثة الذاتية المبدعة التي تقف إزاء الغرب موقف المساواة والتحدّي، وتقف إزاء التراث موقف النقد والإبداع.

كانت حداثة أنطون سعاده غير الحداثة الليفانتينية التي مثلها لنا أساتذتنا في الجامعة الأميركية، وبخاصة شارل مالك، والتي كنا نقف إزاءها بخشوع واحترام، والتي دعا أنطون سعاده إلى محاربتها والتغلب عليها، واستبدالها بحداثة قومية مستقلّة. لم تكن الحداثة بالنسبة له تلك التي تُستورد من الغرب، بل تلك التي تنبع من داخل المجتمع وتراثه الحيّ. وكان اعتقاده جازماً بأن المجتمع السوري قادر على الخلق والتجديد دون اللجوء إلى النماذج الأجنبية، وأن في النفس السورية "كلّ علم وفلسفة وفنّ". كانت الحضارة الغربية بالنسبة له واحدة من بين الحضارات العالمية، وليست، رغم هيمنتها المادية والعسكرية ، الحضارة القدوة أو المثال (كما كانت بالنسبة لشارل مالك).

وكان في تربيته وثقافته ابن القرن التاسع عشر، عصر التنوير، وتأثّر عميقاً بالفلسفة الألمانية، وبخاصة بالمدرسة التاريخية الألمانية ونظرتها إلى نشوء الأمم وتطوّر الحضارة الإنسانية. مات قبل أن يشاهد نهاية الفكر القرن التاسع عشر وبداية الفكر النقدي، ونظريات التعدّدية والاختلاف التي تهيمن الآن. ترى لو عاش، ما كان موقفه إزاء القيم السائدة اليوم، "الحريات الديمقراطية"، "حقوق الأنسان"، "التعدّدية السياسية"، "الذات الفردية"، "البيئة" لا كقيم ونظريات فكرية وحسب، بل كأهداف عمليّة أصبحت تحكم أنواع الصرّاع الاجتماعي والنشاطات السياسية والثقافية الجارية في العالم، بما فيه عالمنا العربي؟

أعدت اليوم قراءة مقاطع من "نشوء الأمم"، كتابه الفذّ الذي وضعه في سجن القلعة في بيروت، وهو في الحادية والثلاثين . قدّمه " إلى رجال النهضة القومية الجبّارة ونسائها العاملين لحياة سورية ومجدها".(أيّ قائد سياسي في ذلك الحين كان يتحدث عن "النساء العاملات" في حزب سياسي!) كان كتاباً لم ترالللغة العربية مثله في حينه، جديداً في موضوعه وأسلوبه، في تناوله النظرة التاريخية الأنثروبولوجية لتطوّر المجتمع لفهم نشوء الأمم. استمدّ مراجعه من بحوث ومؤلّفات في العلوم الإنسانية والجغرافيا والاجتماع والتاريخ، في اللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية، بالاضافة إلى المراجع العربية الكلاسيكية، وبخاصة ابن خلدون. في هذا الكتاب تمثّلت روح الحداثة والتنوير في تفكير أنطون سعاده بأجلى مظاهرها، وبخاصة في علمانيته وإيمانه بالعقل والعلوم الحديثة وحتمية التقدم البشري.

لست أدري ما كان وقَع هذا الكتاب في الأوساط الفكرية خارج الحزب، إذ لم أعثر على اية مراجعة نقدية له في الصحف والمجلات الصادرة في بيروت في تلك الفترة، ولا أعلم عن أية دراسة صدرت حوله. أما داخل الحزب فلا أظنّ أنه لاقى تفهّماً عميقاً، فلم يصدر حوله أيّ بحث مستقل، فبقي هذا العمل الرائد خارج الوعي الفكري السائد داخل الحزب وخارجه حتى يومنا هذا.

في محاضرته الأولى في الندوة الثقافية في 1948 لخّص سعاده معنى الحداثة بهذه المقولة :" النظر الأصلي ينبثق منا نحن بالنظر لحقيقتنا". أي برفض التبعية الفكرية (ما سمّاه: "الفكر المضطرب") والإصرار على إقامة الفكر الأصيل المستقل.

"إن مثل هذا الفكر لا يمكنه أن يحقق شيئاً. الإنسان الذي لا يزال على سذاجة الفطرة له شخصيته واستقلال نفسي وجوهر أعظم من شخص وضع نفسه أداة تسير بأفكار معتنقة. إن الأفكار المعتنقة اقتباساً من الخارج لا تحرك عوامل النفسية الصحيحة". وهذا ما جسّده في حياته وفي موته.

من هنا تشديد أنطون سعاده على أولوية العامل الذاتي في عملية التغيّر الاجتماعي، بدءاً بفصل الدين عن الدولة وإلغاء الطائفية، إلى تحديد الهوية القومية تثبيت ثقافتها العلمانية وإحياء تراثها القومي. ولهذا أيضاً اعتبر مجرّد الاستقلال السياسي غير كاف لإطلاق قوى الأمة وتحقيق أهدافها العليا، واعتبر تحطيم التبعية الحضارية للغرب (على العكس من شارل مالك) شرطاً أساسياً لقيام حضارة قومية جديدة.

بعد تخرجي من الجامعة في حزيران 1947، قررت قضاء الصيف في بيروت والعمل في الحزب، رغم معارضة أهلي. ولأول مرّة، منذ طفولتي، لم أقض ولو جزءاً من عطلة الصيف في عكا (لم يَدُر بخلدي آنذاك أن عكا كانت ستسقط في أيدي اليهود خلال أشهر قليلة وأني لن أراها ثانية!).

كان أنطون سعاده ما زال متوارياً عن الأنظار، لكنه كان يتنقل بحرية تامّة في الجبل يرافقه حرسه المسلّح. أقيم المخيّم القومي ذلك الصيف في ضهور الشوير، واستأجر الحزب بيتاً لأنطون سعاده قريباً من العرزال ليقيم فيه عند قدومه إلى بلدته، وليستقبل فيه الزائرين والرفقاء ولعقد اجتماعات مجلس العمد.

يقع المخيّم على تلة تشرف على بيروت والبحر من جهة، وعلى الخنشارة وبسكنتا وصنيّن من جهة أخرى. اشتركت أنا وفؤاد في خيمة صغيرة، وأقام فايز صايغ في خيمة متاخمة. كان فايز ينهض باكراً ويشرع في الكتابة إلى أن يحين موعد الفطور، فيضع أوراقه في حقيبة صغيرة ويقفل عليها، ثم يصعد في سيارة أجرة ويتجه إلى بيروت ولا يعود حتى الغروب. وبعد بضعة أسابيع ظهرت نتيجة نشاطاته على شكل كتاب صغير بعنوان "من الأعماق" اتخذ فيه موقفاً واضحاً يتعاطف مع الفلسفة الوجودية رغم تعارضها مع العقيدة القومية الاجتماعية، كما شرحها أنطون سعاده. تلك كانت بداية خروج فايز على الحزب وعقيدته.

في تلك الفترة اعتاد أنطون سعاده أن يستدعيني لرؤيته كلما حضر الى ضهور الشوير، فكنت أقضي معه النهار بطوله، وأحياناً أبقى في المساء لحضور الاجتماعات التي يعقدها مع المسؤولين الحزبيين وتستمرّ حتى ساعة متأخرة من الليل.

بعد الظهر كان يحبّ السير في الحرش القريب الذي أقام فيه عرزاله في أوائل الثلاثينات. كنا نخرج من الباب الخلفي كي لا يرانا الحرس، ونتمشى قليلاً ونجلس تحت شجرة صنوبر بجانب العرزال المطلّ على وادي الجماجم، ومن ورائه بسكنتا وصنيّن. كنت استنح الفرصة في هذه المناسبات لأطرح عليه أسئلة في مواضيع مختلفة، منها ما كان فلسفياً، ومنها ما تناول الشؤون السياسية الجارية. وكان يسره ذلك فيتكلم بإسهاب وتفصيل حول المواضيع النظرية التي كانت تتناول بخاصة التاريخ والاجتماع. وإني لا آسف لى شيء بقدر أسفي على عدم تسجيل أقواله بعد تلك الجلسات. لكني ما زلت أذكر الكثير منها.

أرسل يطلبني ذات يوم، وكان قد عاد لتوه من رحلة سريّة قام بها إلى عمَان للاجتماع بالملك عبدالله. وجدتُه في حالة انقباض ويريد أن يفرّج عن ضيق صدره. لم يخبرني تفاصيل ما جرى في عمّان. لكني أدركت أن نتائج الزيارة لم تكن كما كان يرغب أن تكون.

منذ عودته الى لبنان كان يحاول إيجاد مخرج من الحملة التي شنّها ضده النظام اللبناني لإجباره على الرضوخ لإرادة الطغمة الحاكمة، وشروط اللعبة السياسية القائمة في لبنان آنذاك. وكان باستطاعته لوقبل بأداء الدور الذي أراده له النظام القائم (بصفته ارثوذكسياً يتزعّم أوسع الأحزاب انتشاراً في لبنان) أن يصل الى أعلى المناصب في الدولة، وأن يصبح ثرياً. غير أنه لم يكن في هذا الوارد. كان في عالم، والطغمة المهيمنة في عالم آخر. لا هو تفهمّ النظام الأبوي الطائفي على حقيقته الشرسة، ولا الحكّام والوجهاء الطائفيون أدركوا من هو هذا الرجل وما الذي كان يريده.

قال لي ونحن نسير في الطريق المنحدر نحو الدير: "لا مهرب من الثورة. لقد فرضوها علينا. أهمّ شيىء التزودّ بالسلاح".

لكن من أين يأتي السلاح والحزب في أزمة مالية خائفة؟

"لست أدري. لكن إن لم نتدبّر أمرنا خلال مدة قصيرة يُقضى علينا. إنهم يبيتون لنا شراً كبيراً.

كنا نسير الآن بالقرب من غابة الصنوبر والنبعين اللذين ذكرهما في مذكراته ("3 مارس 1929: أشعر بحنين الى بلادي ، الى الوادي، الى غابة الصنوبر، الى النبع"). توقفنا عند النبع ذاته وشربنا من مائه ثم تابعنا طريقنا نحو الدير، الى ان بدأت الظلال تطول والظلام يخيّم. في طريق العودة، قبل ان نصل الى البيت، رأينا عدداً من الحرس يهرول نحونا. وصل خبر من بيروت أن فرقة من الجندرمة كانت في طريقها الى ضهور الشوير. قال رئيس الحرس :"السيارة جاهزة، حضرة الزعيم".

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها قوات الدرك الى ضهور الشوير بحثاً عن أنطون سعاده. كنا نعرف بمجيئها قبل ان تصل، ودائماً هناك متسّع من الوقت لأخذ الإجراءات اللازمة للانتقال الى مكان قريب مُعَد حسب خطة مسبقة.

قال وهو يصعد السيارة. "سنكمل حديثنا عند عودتي".

لم يعرف أنطون سعاده ملذات الحياة كما يعرفها الانسان العادي. كانت حياته مشدودة بخيط لا مرئي الى هدف واحد استحوذ كل وجوده واهتماماته. كل طموح ورغبة أحس بها، كل أمنية رمى الى تحقيقها، وكل علاقة أقامها، ارتبطت بهذا الهدف الواحد. حياته لم تكن ملكه. المال والعيش المريح والمركز المرموق لم تكن تعني له شيئاً. عاش فقيراً أو مات فقيراً دون أن يدري ذلك. كان ثرياً برؤياه.

كان وحيداً، لا صديق له بالمعنى المألوف، لا لأن الذين أحاطوا به في الحزب كانوا دون مستواه الفكري والثقافي وحسب، بل لأنه عاش على صعيد مختلف من الحياة. كان هناك أشخاص، من بين الذين انضمّوا الى الحزب، أحبّهم حبّاً جمّاً، كفخري معلوف. لكن علاقته بهم لم تكن علاقة "شخصية"، بل علاقة رفقاء كرّسوا حياتهم مثله للصراع في سبيل قضية واحدة. يمكن القول إن إيمانه بالأمانة والحزب ابتلع حياته فأصبحت حياته مجرّد أداة وظّفها لخدمة الأمة والحزب.

عندما قال: "إن الدماء التي تجري في عروقنا، هي ملك الأمة متى طلبتها وجدتها"، كان يعني ما قاله حرفياّ. من هنا نتفهّم رباطة الاجأش الخارقة التي جابه بها حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة العليا اللبنانية بحقه ونفذّته في 8 تموز 1949.

لم يكن سعاده يملك حياة خاصة ليفقدها. فقد نسي نفسه، كما قال، لتحيا سورية.

لا يمّحي يوم مغادرتي الى اميركا من ذاكرتي. وصلنا الى مطار اللّد عند المغيب. كان يوماً شديد البرودة في منتصف كانون الأول 1947. الطرق خالية إلا من المصفّحات البريطانية، وسيارة يوسف الـــ"همبر" السيارة المدنية الوحيدة في الطريق بين القدس واللّد.كان يوسف يوصلنا، أخاه فايز وأنا، الى المطار لركوب الطائرة. أمس، كنا في القدس، في اوتيل كلاريدج بالقطمون الذي يديره فريد عطايا. بعد الظهر ذهبنا، جوزف سلامة وأنا، لمشاهدة فيلم "حبيب العمر" لفريد الأطرش وسامية جمال في سينما ركس . كانت القاعة تعجّ بالمشاهدين، والحياة تسير كعادتها كأنّ شيئاً لم يحدث في فلسطين.

في المطار الصغير المقفر يقول لنا الموظف في مكتب شركة الـ TWA بأن طائرتنا قد تأخرت وأنّ موعد الاقلاع قد تأجّل الى صباح اليوم التالي. نعود الى اللّد ونمضي الليلة في فندق صغير بعد أن يودّعنا يوسف ويعود الى القدس. كانت تلك آخر ليلة أمضيها في فلسطين.

في صباح اليوم التالي نستقلّ الطائرة. من نافذتها ألقي آخر نظرة على يافا. أراها من ناحية البحر، من فوق الميناء، وأتبيّن العجمي، والكنيسة الأرثوذكسية البيضاء الى جوار بيتنا. يُخيل اليّ أني ألمح بيتنا في قمة تل العرقتنجي وما هي الا لحظات حتى تغيب يافا عن ناظري، ولا أعود ارى إلاّ الشاطىء الأبيض الطويل.

حدثني الكاهن الذي عرّفه

سعيد تقي الدين

...تناول رجل الدين ورقة من مطاوي جلبلبه الأسود الفضفاض منتزعة من دفتر مدرسي، وهمّ بقراءتها، فاعترضته وقلت: اسمعني حديثك لا تقرئني اوراقك، ولو كانت مذكرات.

فراح يتكلم:

حين فتحت الباب على صوت القرع الشديد في منتصف ذاك الليل، وجدت نفسي امام ضابط من الجيش يطلبون الي ان ارتدي ملابسي واحمل صليبي وعدة الكهنوت بسرعة، قلت: ما الخبر؟ اجابوا: سنعدم الخائن انطون سعاده هذه الليلة، ونريد ان تعرّفه وتقوم بمراسم الدين قبل اعدامه.

قلت: ان امراً كهذا لا يسعني ان افعله، آتوني باذن من سيادة المطران، هكذا ينص قانوننا الكنائسي. قالوا: ليس لدينا من وقت، افعل هذا على مسؤوليتنا نحن. فاعتذرت من جديد. وراحوا يلحون علي مرددين ان خرق النظام الكنائسي هو اقل ضرراً من ان يرسل مسيحي الى الموت غير متمم واجباته الدينية.

وأخيراً أذعنت بكثير من التردد والحيرة، وركبت سيارتهم في طرقات تعج برجال الامن من جنود وبوليس ودرك واسلحة مشرعة، واطللنا على سجن الرمل، فاذا هو منار من الداخل، ونزلنا حيث كان ضباط آخرون بانتظارنا.

وأقبل علي مدير السجن يعرفني الى نفسه، واخبرني ان هذا هو الاعدام الثالث عشر الذي مر به، وان الامر بسيط فأجبته: "لقد مضى علي ثلاث عشرة سنة في الثوب الكهنوتي، وهذا أول اعدام سأشهده" وكان الطبيب الذي اشترك معنا في الحديث مثلي، لم يشهد اعداماً في ما مضى.

وزاد مدير السجن فقال: ان هذا المحكوم الخائن انطون هو رجل خائن، وكافر ملحد يبشر بالكفر والالحاد، انه لن يأبه لك يا أبانا، هذا الخائن الملحد الكافر.

ودخلنا، حيث كان الزعيم، محبساً من الغلو نعته انه غرفة، فوجدناه مفترشاً بساطاً من قذارة ورقع. وكان هذا الفراش اقصر من قامته، فجل من جاكيته وصلة بين الفراش والحائط كي لا ترتطم به قدماه. وكان نائماً نوماً طبيعياً، ورأسه على ذراعه اليسرى التي جعل منها بديلاً عن مخدة لم تكن هناك.

فايقظناه فنهض حالاً، وبادرنا السلام، وخصني بقوله: "أهلاً وسهلاً يا محترم" فابلغناه انه لم يصدر عنه عفو وان الاعدام سينفذ به حالاً. فشكرنا باسماً رزيناً. واستأذن بلبس جاكيته التي كانت مطوية تحت قدميه، فاذنوا له، فشكرهم من جديد، ولبسها.

وخلوت به، وسألته ان كان يود ان يقوم بواجباته الدينية، فأجاب: لم لا؟ وطلبت اليه ان يعترف، فأجاب: ليس لي من خطيئة ارجو العفو من اجلها، انا لم اسرق، لم ادجل، لم اشهد بالزور، لم اقتل، لم اخدع، لم اسبب تعاسة لاحد.

وبعد ان فرغت من المراسيم الدينية، تركنا الغرفة فكبلوا يديه وخرجنا الى مكتب السجن.

هناك طلب ان يرى زوجته وبناته، فقيل له ذلك غير ممكن. وقدموا له ترويقة فاعتذر شاكراً، ولكنه قبل فنجاناً من القهوة، متناولاً اياه بيمناه واسنده بيسراه. وكانت تسمع للقيد رنات كلما ارتطم بالفنجان.

وكان الزعيم يبتسم صامتاً هادئاً مجيلاً عينيه من وجه الى وجه كأنه يودعنا مهدئاً من روعنا. هنا انفجرت انا بالبكاء، وبكى معي بعض الضباط، بل ان احدهم اجهش وانتحب.

وبعد ان شرب القهوة، عاد يصر على لقاء زوجته وبناته، فسمع الجواب السابق.وسئل لمن يريد ان يترك الاربعماية ليرا التي ودت معه، فأجاب ان وقطعة من الارض في ضهور الشوير هي كل ما يملك، وهو يوصي بها لزوجته وبناته على التساوي.

وطلب مقابلة الصحفيين، فاخبروه ان ذلك مستحيل. فسألهم ورقة وقلماً، فرفضوا. قال: ان لي كلمة اريد ان ادونها للتاريخ. فصرخ به احد الضباط منذراً: "حذار ان تتهجم على احد، لئلا نمس

كرامتك". فابتسم الزعيم من جديد وقال: انت لا تقدر ان تمس كرامتي، ما اعطي لاحد ان يهين سواه، قد يهين المرء نفسه، واردف يكرر: "لي كلمة اريد ان ادونها للتاريخ، وان يسجلها التاريخ."

فسكتنا جميعاً، في صمت يلمس سكونه ويسمع دويه.

أصارحك بانني كنت في دوار من الخبل، ومن المؤكد أنني لا أعي كل ما سمعت، وللكن الراهن اني سمعته، سمعته يقول: "انا لا يهمني كيفف اموت، بل من اجل ماذا اموت. لا اعد السنين التي عشتها، بل الاعمال التي نفذتها. هذه الليلة سيعدمونني، أما أبناء عقيدتي فسينتصرون وسيجيء انتصارهم انتقاماً لموتي. ولكن قليلين منا من يظفرون بشرف الموت من أجل عقيدة. يا خجل هذه الليلة من التاريخ، من أحفادنا، من مغتربينا، ومن الاجانب، يبدو ان الاستقلال الذي سقيناه بدمائنا يوم غرسناه، يستسقي عروقنا من جديد".

ومشينا الى حيث انتظرتنا السيارات، والزعيم ماشٍ خطى هادئة قوية يبتسم. انه لم ينفعل، كأن الإعدام شيئ نفذ به مرات عديدة من قبل، انه لم ينفجر حنقاً او تشفياً. انه لم يتبجح شأن من يستر الخوف.

في تلك اللحظة وددت لو خبأته بجبتي، لو تمكنت من اخفائه في قلبي أو بين ورييقات أنجيلي. إن عظامي لترتجف كلما ذكرته.

وحين خرجت الى الباحة رأيت الى يميني تابوتاً من خشب – من خشب الشوح لم يخف الليل بياضه. وتطلع الزعيم الى نعشه فلم تتغير ملامحه ولا ابتسامته.

وقبل ان يرقى الجيب، طلب للمرة الثالثة والأخيرة أن يرى زوجته واولاده. وللمرة الثالثة والأخيرة، سمع الجواب نفسه. فتبينت ملامحه، وفي تلك اللمحة العابرة فقط من عمر ذلك الليل لمحت وميض العاطفة خلال زوبعة الرجولة.

وسارت الجيب بالزعيم يحف به الضباط وخلفه تابوته، وقافلة سيارات وشاحنات من ورائه وامامه ملأى بالجنود المسلحة. ولعل مساً من البله اعتراني، فبدا لي ان تنفيذ الإعدام سيؤجل، او ان عفواً سيصدر. سييطر عليّ هذا الوهم فخدرني، حتى انحرفنا عن الطريق العامة الى درب ضيقة بين كثبان. ووقفنا في فجوة بين الرمال كأنها فوهة العدم.

وقفز من بينهم، مكبلاً، الى عمود الموت المنتظر، فاقتربوا منه ليعصبوا عينيه، فسألهم أن يبقوه طليق النظر، فقيل له: القانون.

فأجاب: انني احترم القانون.

واركعوه وشدوا وثاقه الى العمود. وكأن الحصى آلمته تحت ركبتيه فسألهم ان كان من الممكن ازالة الحصى، فازالوها، فقال لهم: "شكراً"، "شكراً"، رددها مرتين، وقطع ثالثتها الرصاص.

فإذا الزعيم وقد تدلى رأسه وتطايرت رئته اليمنى، وتناثرت ذراعه اليسرى، فلم يعد يصل الكتف بالكتف الا جلدة تتهدل.

وكوموا الجثة في التابوت، وتسارعت القافلة نحو المقبرة. وهناك كادوا يدفنوها من غير صلاة لو لم يتعالى صياحي. أخيراً قالوا لي: "صلّ إنما أسرع، أسرع، صلّ من قريبو".

ودخلنا الكنيسة، ووضعنا التابوت على المذبح، ورحت أصلي، والدم يتقطر من شقوق الخشب، ويتساقط على ارض الكنيسة نقاطاً نقاطاً، ليتجمع ويتجمع ثم يسيل تحت المذبح.

وخرجنا من المعبد، ووقفت امام بابه أواجه الفجر الذي أطل، واناجي الله، واسمع رنين الرفوش ترتطم بالحصى وتهيل التراب، وترتطم وتهيل التراب.

بذا حدثي الكاهن الذي عرّفه.

أقول لك أن تراب الدنيا لم يطمر تلك الحفرة.

أقول لك أن رنين الرفوش في ذلك الفجر سيبقى النفير الداوي ليقظة هذه الأمة. أقول لك أن منارة الحياة قد إرتفعت على فوهة العدم.

من أقوال سعاده

1) المجتمع معرفة، والمعرفة قوة.

2) إن لم تكونوا أنتم احراراً من أمة حرة فحريات الأمم عار عليكم.

3) سواء فهمونا أم أساؤا فهمنا، فإننا نعمل للحياة ولن نتخلى عنها.

4) إن إقتتالنا على السماء أفقدنا الارض.

5) إننا لن نتنازل عن مركزنا في العالم العربي ولا عن رسالتنا إلى العالم العربي.

6) الإنتصار لا يكون إلا بالحرية والحرية صراع.

7) إن الحياة كلها وقفة عز فقط.

8) إن الشعوب الغبية تفعل برجالها ما تفعله الأطفال بألعابها، تحطمهم ثم تبكي طالبة غيرهم.